المملكة العربية السعودية

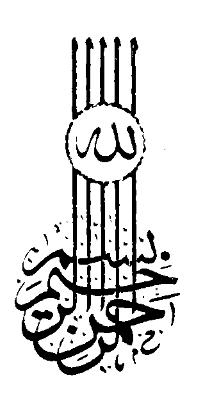


اللجنة الثقافية العامة

أزمة الشعر العربي المعاصر

الدكتور غازي القصيبي

محاضرة ألقيت ضمن النشاط الثقافي العام لجامعة الرياض بقاعة المحاضرات العامة بمبنى إدارة الجامعة بالملز مساء يوم الثلاثاء ٣٠-٢-١٤٠١ هـ .


بسم الله الرحمن الرحيم



دكتور غازي عبد الرحمن القصيبي

نص المحاضرة التي القيت ضمن النشاط الثقافي العام بجامعة الرياض ١٤٠١هـ

أعرُف أنَّ كلمةَ «أزمةْ» تعبيِّر نسبْي يصَعُب تحدِيدُه وقياس أبعادِه ومدلولاتِه . ما يعتَبره البعضُ «أزمةْ» قد يكُون في نظر البعضِ «كارثةً محقّقة» بينما لا يرى فيه آخرْون سوى مظهرٍ من مظاهر العافيةِ والازدهاْر . بل إن الفَرد نفَسَهَ قد يرى في أمرٍ ما أزمْة ثم تنفرجُ الأزمْة لا بسبب تغيْير الأحداْث ولكن كنتيجةٍ لاعتـدالِ المِزاج . أقـولُ هذا استباقـاً للجدَل ـ والموضُوع بطبيعتِه مثيرٌ للجدْل ـ الذي قد يزْعُم أن الشعْر العربيَّ المعاصر لا يعاني أية أزمةٍ من الأَزماتِ أو مشكلةٍ من المشاكلْ .

وأوّد من البدايةِ أن أعترفَ أن حديثِيَ ليس حديثَ الناقِد أو العالِم أو الدارِسْ . لقد حرمتني الظروفُ عباءَة الناقِدْ ومجهَر العالِمْ وموضوعيةَ الدارسٌ ولكنه حديثٌ عفْوى نشأ عن تجرُبةٍ شخصيةٍ مباشرةٍ مع الشعْر ، قراءةً وكتابَة ، لا أشُكُ أنها تَركَت بصماتِها على الفكرِ المنطوِي وراءَ الحدْيث ، ان كان ثَّمة فكِرْ .

إن الشعرَ العربيَ المعاصر لا يعاني أزمةً واحدةً فحسْب بل أزمتْين . أما الأولى فقد تعرضْتُ لها باسهابٍ وتفصيلٍ من قبْلُ في أكثرِمِن موضِعٌ ولهذا فسوفَ أَمرُّ عليها الليلةَ مرورَ الكرامْ . أما الثانيةُ فلا أعتقد أنها لَقيتْ نصَيبَها من العنايةِ والتأملِ ولذلك فسوف أجعلُ منها المحور الذي يدُور حولَه حديثُ الليْلَة . الأزمةُ الأولى هى تضاؤُل دور الشعرِ في هذا الزمانِ والمكانْ . أما الأَزمةُ الثانية فهى الانفصامُ بين المقلِّدين والمجددينْ وما أدّى اليه هذا الانفصاْم من عجز الشعرِ العربي المعاْصرِ عن الوصولِ الى روحِ الأُمَّة العـربيةِ ولمس خلجاتِها وأحاسِيسِها؟.

أمَّا أَن دَور الشِعر قد تَقلصَّ وتَضاءل عما كان عليهِ في عصـورِ الشعـر العربـي الذهبيةْ ، وفي مقدمتِها العصْرُ الجاهلي , فأمرٌ لا أَعتقدُ أنه يحتاجُ الى برُهانْ . على أن ما دفعني الى الخوضِ فيه من قبْل والى التعرّضِ اليهِ الآنْ هو ما أقرأُ كلَّ أسبوعٍ من دعاوي

عريضهِ لشعَراء عربٍ معاصرين يرفضُون الاعتراف بهذهِ الحقيقَةْ .. لقد قرأتُ منذُ فترةٍ وجيزَة رأياً لشاعرٍ عربيٍ معرُوف يزْعم فيه أن الشعَر العربيّ يعيش اليوم أعظمَ عصُوره ودللَّ على ذلك بأن عشراتِ الآلاف في كل بلدٍ عرْبي معجبةٌ بأشعاره . لا أعتراض لدىَّ على احصائياتِ شاعرِنا ، وهو بالمناسبةِ كمعظمِ الشعراءِ يتحلىّ بنرجسيةٍ متَضخمة ، ولكن معيار الأهميةِ ليس عددياً فحسبْ بل يمتدُ إلى مدى تأثيرِ الشعـرِ على مجَـريات الحياةِ العامة ، والحياةِ السياسيةِ على وجهِ الخصوصْ . وأعتقد أنه من الصعبِ على أى انسانٍ يدّعى الموضوعية أن يزعُم أن الشعر في هذا القرنِ مؤثرٌ رئيسٌي من المؤثراتِ المتحكمةِ في السلوكِ العامِ أو الخاصِ في الشرقِ أو الغربْ . لقد مضى الزمَنُ الذي كانت فيه قصيدةٌ واحدةٌ تقيمُ الدنيا وتُقعِدُها . ومضى الزمنُ الذي كان فيه بيتٌ واحد يخزى قبيلةً ويرفعُ أخرى . ومضى الزمن الذي كان فيه الشعرُ وسيلةً فعّالة من وسائِل العمِل السياسيْ .

لقد اجتمعتُ في استوكهلْم قبل بضعة أشهرٍ مع مجموعةٍ من أشهرِ الشعراءِ السويديّين ودار حديثٌ طويلٌ عن الشعْرِ أبديتُ خلاله رأيي عن اضمحلالِ دورِ الشعْر . ولقد عارض الشعراءُ السويديُون ، كما يعارض الشعراءُ العَربْ ، هذا الرأى معارضةً شديْدة . قلت لهم إنني مستعدٌ تمام الاستعدادِ للعدولِ عن رأيي اذا استطاعوا أن يزودونيَ بأمثلةٍ لقصائدَ كتبت في أوربّا أو أى مكانٍ آخرٍ من العالم خِلالَ الأربعينَ سنةٍ الأخيرةَ واستطاعت أن تحققَّ أى قدرٍ من الفعّاليةِ الاجتماعيةِ أو السياسيةِ . وقد بحث الزملاءُ ونقبّوا في ذاكرتهْم حتى انتهى الأمر بقصيدةٍ واحدةٍ كتبتْ في روسيا السوفيتية وأحدَثت من الأثرِ ما دفَع بستالينْ الى اعتقالِ الشاعرْ . ولا أظنني بحاجةٍ الى التأكيدِ أنه إنْ وجدت استثناءاتٌ مثلُ هذهِ هنا وهناك فهى استثناءاتٌ تؤكد القاعدةَ العامةَ وتُدعمها . ان الصحفَيين الـذى يتعرَضون كُل يومٍ لرصاصاتِ الاغتيالْ هُم أنصعُ دليلٍ على أن الشعَّر تَنازل للصحافةِ عن دوره كوسيلةٍ من وسائل العملِ السياسِي الفعّالْ .

وأُحبُ أن أسارعَ فأضيفَ أن هذه الأزمْة ليستْ من صنع الشِعرِ العربْي وليس بُوسعهِ أن يتخلّصَ من شباكِها حتى تتَغير ظروفُ الحياةِ نفسِها . إن طفلَ اليومْ يتلقّى من

التلفزيون ما كان يتلقّاه طفلُ الجاهليةِ من الشِعْر . والخلافُ الحادُ الذي ملأ الدنيا عصوراً طويلة عن أشعرِ الناسِ تحوَّل الى خلافٍ من نوعٍ جديدٍ عن أعظم نوادي الكرة . ان الشاعرَ العربيَ المعاصُر الذي يحلُم بدورٍ شبيهٍ بدورِ أسلافهِ في العصورِ الماضية يغازِلُ أوهاماً جميلةً غرسَتها شياطينُ الشِعرِ في صحَاري عبقَرَ .

على أنني أوَدّ أن أمضيَ قُدماً فأتحدَّثَ عن الأزمةِ الأخرى التي ألمَّتْ بالشِعرِ العربيِّ المعاْصر نتيجَة انفصالهِ التدريجي عن وُجدانِ هذه الأُمّة حتى لتكَادُ الأُذُنُ العربيةُ تنكرُ ما تسمَع من شعُرٍ ولتكادُ النفسَ العربيةُ تتلقى ما تسمعُ من شعْرٍ دون أن تختلِجَ فيها نبضةٌ واحدةٌ . إن سببَ هذِهِ الأزمة ، باختصارٌ ، هو عجزُ الشعراء المجددّينَ عن الحديثِ باللُغة التي تعوّدتْ عليها الأُذُنُ العربيةُ عبر العصورِ الماْضية وعجزُ الشعراءِ المقلِدّين عن الحديثِ عن الهمومِ التي تؤرِّق النفسَ العربَية في هذِه السنين من هذَا العصرّ . غير أنه لكي نتوصَل الى قلبِ الأزمةِ فلا بد لنا من أن نبدأ برحلةٍ سريعْة تنتظمُ الشعرَ العربيَّ منذُ ولادتِه وحتى أيامِنا هذهْ . وخشية أن ينبريَ لي الأكاديميون ، وأنا أتحدَّثُ في جامعـة ، بغضبةٍ مضريهٍ تنفي طَابع العلميةِ عما أقولْ ، أودُّ أن أكرِّر هنا ما اعترفتُ به في بدايةِ الحديْث . ان الأحكَام التي تسمعونها منـي الليلـة هي أحـكامٌ انطبـاعيةْ ،وان شِئتـْم فتحكُمّيةْ ، بل سأذهبُ أبعدَ من ذلك فأُسمِّيها عشَوائيةْ . وان صدَقني الحدسُ فستنتهي بي هذه الأحْكام لا الى غضب المنظِّرين والدارسين فحَسبْ بل الى نقمةِ الشعراءِ أنفسِهمْ مجددِّين ومقلِّدين . غير أنني تعودتُ على ردودِ فعلٍ كهذِه حتى تكسَّرتِ النصالُ على النصالِ .

لا أعتقدُ أن شاعراً أو ناقداً عربياً معاصراً واحدا لم يدل بدلوه في السخرية من التعريفِ التقليديِ للشعرِ عند العربْ . الشعرُ هو « الـكلام الموزونُ المقفـي » . ولعلِّ بدوري ذَات يومٍ سَخرتُ مع الساخرينْ . على أنني بعد أن أوليتُ الموضوع الكثير من التفكير انتهيتُ الى نَتائج ثَلاثٌ :

الأولى : إن أحد اً من الساخرين والمستهزئين لم يصلْ الى تعريفٍ أفضَل للشعْر . ومن

هنا تبقي حقيقةٌ واضحةٌ وهى أن هذا التعريفْ ـ على سوئهِ المفرطِ ـ يظلُّ أحسن تعريفٍ للشعرِ في مُتَناولِ اليدْ .

والثانيةُ : إن التعريفَ لم يتطرَّقْ الى نوعٍ محدَّدٍ من الأوزان أو نوعٍ محدَّدٍ من الالتزام بالقوافيْ وبالتالي فالتعريفُ أكثرُ تحرراً وانطلاقاً مما يظهـرُ من النظـرةِ العَجلى الأولى .

والثالثةْ : إن هَذا التعريفَ كُتب في ظلِ ظروفٍ موضوعيةٍ معيَّنةٍ حتَّمت حمَايةَ الشعرِ من ٱلاختلاطِ بالنثر . ان هذا التعريفَ هو في حقيقةِ أمرهِ سورٌ منيعْ بُني ليَمنع النَثر من التسللِ الى قلعةِ الشِعْر . وهذه الملاحظةُ تقودنا بالضرورة الى تفصيلٍ أرجو أن أُبيّن عَبْره ملمَحاًرَئيسياً من ملامحِ الشعرِ العربي القدِيمْ .

لقد وُلد الشعْر العربي في أحضانِ بيئةٍ لم تعرفْ من ضُروب الأدبِ ولا من أنواعِ الفنونِ الجميلةِ سِواه . بخلافِ عددٍ من الحَضاراتِ التي فُتنت بالفناءِ والرقصِ والتمثيلِ والنحتِ والموسيقيْ لم يكن العرب في جاهلِيتهم يعرفونَ أيَّ وسيلةٍ للتعبير الفنيِّ سوى الشعْر . كان الشعر عندَ العربْ ، بصرف النظر عن دورهِ السياسيِّ والاجتماعيِّ ، يمثلُ ما مثَّلتهُ الفنونُ الجميلةُ الأخرى مُجتمعة عند حضاراتٍ أخرى . ولعّل هذا يفسر لنا السِّر الكَامن وراء المكانة الخاصةِ التِي احتلها الشعْر في عقولِ العربِ وأرواحِهم . ومن هنا ندْركُ أن النقّادَ الذينَ عرَّفوا الشِّعر بأنه الكلامُ الموزونُ المقّفي لم يكونوا سذَّجا أغبياءْ كما يحلو لنا أحياناً أن نتصورَ بل كانوا يُحاولون بطرِيقِتهم الخاصة أن يَحموا الفَن الجَميل الوحيدَ الذي عرفته بِيئتُهمْ من الانقراضِ والتحللِ في النَثرْ . ولعلَّنا في أيامِنا هذه بعدَ أن فقد التعريفُ القديمُ تأثيرهْ وبعد أن أصبحت قَصيدةُ النثرِ جُزءاً لا يتجزأ من الشعرِ في رأى كثيرين وبعد أن أصبَح بامكانِ أى انسانٍ مُشوش التفكير أن يتحفنَا بَهذيان لا يفهمُه أحدٌ ويسميهِ شعِراً ، لعلَّنا نُدرك أن التعريفَ القديمَ الذي نعتبرهُ اليومَ طُرفَةً مُضحكة استطاع خلال القرونِ الطويلةِ أن يحتفظ بالشّعر العربِي ككيانٍ واضحٍ مستقلٍ صامدٍ في

أوجه الأدعياء والعابثين .

ان كون الشعرِ هو الفنُ الوحيدُ الذي عَرفه العربُ يزوّدنا بِمفتاحٍ سحريٍ نستطيعُ عن طريقهِ أن نفهم كثيراً من الألغازِ المرتبطةِ بالشعرِ العربيِ والتي يعسرُ فهمُها بدونِ هَذا المِفتاحْ . ان اِستبسالَ العربِ في حمايةِ الشعرِ من النثرِ لم يكنّ قائماً على جهلٍ أو تعصُبٍ أو سذاجه بل كان منطلقاً من رغبةٍ انسانيةٍ عفويةٌ في حِمايةِ ذلِك الشيءِ الجميلِ الرائِع الذي كان يرشُ الصَّحراءَ القَاحلةَ بقطراتٍ مِن الموُسيقى ومَضَاتٍ من الخيَالْ . كان العـربُ يتوقعون من الشعْر ما كان اليونانُ يتوقَعون من ملاحِمِهم ومسرحياتِهم ، وما كان الرومانُ يتوقعُونَ من تماثِيلهِمْ وموسيقاهمْ ، أي تلك الهزّةُ الروحيةُ الممتعةُ التِي يطربُ لها عشّاقُ الفنوُن الجميلةْ . وهكذا تحوَّل الشاعرُ العربيُّ الى فنّان يمارسُ الغناءَ والعزفَ والنحّـتَ والتَّمثيلَ في وقتٍ واحدْ .

إنني أشعُرُ الآن بقدر من تأنيب الضميْرِ لأنني سمحْتُ لنفسي في فورةِ الصبا الذي يعتقدُ أنه يعرفُ كلّ شيء أنَ أَسْخَرَ من الذوقِ الشعري العربي القَديمْ متناسياً ان ما أَعجبَ العَربي في بيئتِهِ الملتهبةِ المقْفرةِ كان منطلقاً من تجربته المَوضوعية ومتناسياً أنه لا يَحقُّ لي وأنا ربيبُ هذا القرّن بطائراتهِ واذاعاتهِ وتلفزيوناتِه وشتّى عجائبهِ أن أحكم على سلف لِي بدون أبسطِ محاولةٍ لأن أضع قدميَ في حذَائهِ كما يقولُ المثل الغربيّ .

واسمحوا لي هنا أن أتخذَ مثلاً على موقفِي البيَت الشّهير المنسوب الى يزيدِ بن معاويه :

فأَمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسَقتْ
وردأ وعضّت على العنّابِ بالبَردِ

هذا البيتُ يصورُ موقفُ الوداْع وقد هطلتْ الدموُع اللؤلؤيةُ من عينَـيْ الحبيبـةِ الناعستيْن على وجنتَيْها الحمراوتيْن وعضَّت بأسنانِها البيضاءَ على أصابعها من الألمْ . لقد

فُتن الذوقُ العربيُ بهذا البيتِ منذ أن قيل حتَى ظهورِ موجةِ التجديد التي حوّلتْهُ الى مثلٍ يُضربُ ليبَيّن للناس سُخْفَ الشِّعرِ العربيِّ القَديم وسذاجَته وتعلّقِهِ بالزخارفِ اللفظيّة . وأَذكُر أن أَحدَ النقَّادِ قال مرَّة أن هذَا البيَت يذكرَه بسلطة الفواكَه التي تُقدّم بعد انتهاءِ وجبةِ الطَعامْ . وقد كنتُ بدوري أُردّدُ كالببغاءِ هذاَ الموقف المتَحيز المتحَاملِ على البيتْ .

على أنني أعترفُ أَمامكم الآن أنني عندما أتذكَّر أن البيت قيل في بيئةٍ لا يكاد يوجَد فيها لؤلؤٌ أو يزهرُ فيها نرجسٌ وبين قومٍ لم يتمتعوا برؤيةِ الورودِالا في المناسباتِ القليلةْ ، في بيئةٍ لم يكن فيها رسّامٌ يستطيعُ رَسْم اللؤلؤ أو النرجس ، ولا آلاتَ تصويرٍ تتابع حركةَ الأسنانِ والأصابع ، ولا تلفزيونٌ يَبُثُّ اغنياتٍ عن العنَّابِ والبَرْد ، عندما أتذكَّرُ هذا كلَّه أتصورُ الرعشةَ الغامرةَ التي صادمَت عين العربيِّ وأذنه وروحَه وهو يستمعُ إلى البيتْ ، هذه الدفقةِ المركَّزةِ من اللونِ والحَركةْ ، وأُدْرِكُ أنني ، كبقيةِ الساخريْن ، لم أَكنْ منصفاً حين اعتبرتُ البيتَ مجرّد زخارِفَ لفظيْة لا طائلَ وراءَها ولا يمكن أن تعجبُ أحداً من ذوي الذوقِ السليمْ .

وما قلتُه عن هذا البيتِ يصدُق على الآفِ من الأبيأتِ قد لا يرى قارىء اليوم وراءَها سوى لعبٍ بالألفاظِ أو صور غريبةٍ نابعةٍ من خيالٍ سادرٍ في الغَيْ ، غيرأَنها في الحقيقةِ كَانت ذاتَ يومٍ لوحاتٍ فنية جِميلةْ أقبل عليها العربيُ بِنَهَمٍ يتأملُ ظلالَها ويُعْجَب بألوانها وينسى ، لحظاتٍ أو دقَائقْ ، ضراوةَ الحياةِ القاحلةِ من حولهْ . هذه « الغنائية » اللصيقةُ بالشعرِ العربيِّ ، والتي يعدها ٱلبعضُ عيباً كبيراً من عيوبهْ ، لمْ تنشأ عبثاً أو اعتباطاً أو نتيجة جهلٍ من شاعرٍ أو ناقدَ بل كانتْ نبتاً طبيعياً فرضتهُ حقيقةٌ مؤكَدَة وهو أن الشعر كان غِناء بالفعِل . وليس من قبيلِ المصادفةِ ان العَربَ كانوا يقولونَ انشَد فلانٌ شِعرَه وان أعظمَ كتابٍ يؤرّخ للشعر العربيّ يُسمَّى «الأغاني» وهذه «اللفظيةُ» التي يسخرُ منها المجددُون كانت قَدَراً محتوماً للشعّر العربيْ وهل كَان أَمام العربيّ من أدوات الفنِ سوى اللفظةَ يضعها هنا أو هناكْ ويُجري عليها التجارْب . هذه «المنبريةُ» التي يهاجمُها شعراءَ اليومْ هل كان بالامكانِ تفادِيها في بيئةٍ جعلتِ الشاعرَ يُزاولُ كل مَهامِ المُمثلينَ على

المَسرحْ ؟ هذه «الخطابيه» التي تقشعرُّ منها الأبدانُ اليوم هل كانت سوى أمرٍ منطقيٍ في بيئةٍ لم تُعطِ الشَّاعرَ وسيلةً لبثِّ شعرهِ سوى أن يقوم خطيباً بهذَا الشِعْر . أريد أن أقول أن الغنائية «واللفظيةَ» «والخَطَابيةَ» «والمِنبريَة» لم تكنْ أوجه نقصٍ أو مظاهر مرضٍ بل كانت ظَواهِرَ نمَتْ نمواً عادياً طبيعياً من تُربةِ الشّعرِ العربيّ .

لقد كان من أسبابِ الخِلاف بين المقلّدين والمجدّدِين أن المقلّدِينَ اعتِبروا الخَصائِصَ التقليْديَّة للشعرِ العربيِ رائعةً في حد ذاتِها فما ينبغي أَن يمسّهـا شيءٌ من التعـديلِ أو التحويرْ ، بينما اعتَبرها المجدّدونَ شرّا خالصاً ينبغي القضاءُ عليه كليّةً ليمكن أن يولَد شِعرٌ عربيٌ جديدٌ مُبْدعٌ . وحقيقة الأمر ، في رأيْي ، أن هذه الخَصائِص ظاهرةٌ محايدة هى مصدَرُ قوةٍ في يدِ الشاعِرِ المبدع ونُقطةُ ضَعفٍ عند الشاعِرِ الفاشِل .

وثمهُ ملمح رئيسيٌّ ثانٍ وسم الشِّعر العَربي بميسِمه منُذ اللحظةِ الأولى لولادتِهْ وهو أن هذا الشعرَ فتح أجفانَه في بيئةٍ جاهلةٍ أميّةٍ لا تعْرفُ القرَاءة ولا الكتَابةْ فلمَ تَكُن هناكَ من وسيلةٍ لتداولِ الشعرِ سوى الحِفظْ . وهنا نَضعُ أيدينا على مِفتَاحٍ آخر يساعدُنا على فهمِ الذوقِ الشعري العَربيّ الا وهو أن الشِّعر الجيد في نظرِ العَرب كان الشّعر الذي يُمكن أنْ يُحفَظَ بِسهُولَةْ . هذه القابلية للحفظْ كانَت المعيارَ الحقيقي الكامنَ وراءَ الاعجاب بأشعارٍ دون غيرِها وان كانت معياراً لا شعورياً خفياً لَم يتحدّث النقّادُ عنه صراحْة . ان الشعر الذي لم يَكن يقبل الحِفْظ ، اما لعُسرٍ في تركيبه اللفّظي أو معناه أو لرتابةٍ في كلماتهِ جعله شبيهاً بالنثْر ، لم يكنْ عند العربِ شعراً رديئاً فحسبْ بل كان شعراً محكوماً عليه بالفناء إذ وُلد محروماً من أهم مقوماتِ الحياةِ .

ان المقلدّين من الشعراء والنقّادِ اليْوم لا يَزالون يتحدَّوْنَ المجدّديْنَ ان يستظهروا قصيدة واحدةً أو مقطعاً واحداً من الشعرِ الحديثِ مُدللّين بهذا التحدّي على أن الشعرَ الحديث لا يقبلُ الحِفظ وبالتالي فهو ليس بشعرٍ حقِيقيْ . وغنيٌ عن الذِكر أن الشعراءَ المجدَّدين يعتبرون هذا الامتحَان الذي يندُر أن يجتازه أحدُ منْهم غاية في السخفِ والتنْطع

ودليلاً جديدا على تحجّرِ العقليةِ المقلّدةْ . وحقيقةُ الأمر أَن المقلدينَ لا يتنطعون ولا يتكلفون ولكنهم لا يزالون مشدودين في أعماقِهم الى معيارِ القابليةِ للحفظِ حتى بعد أن دارت الأيامْ وظهرت أجهزةُ التسجيلْ ولم يعد ثمّة مبررٌ منطقيٌ للاصرارِ على الحفظِ .

من هذا الاهتمامِ بالحفظِ نشأ تقليدٌ رئيسيٌ أصيلٌ من تقاليدِ الشّعرِ العربيّ ألا وهو أهميةُ البيتِ الفرْد كوحدةٍ مستقلةٍ قابلةٍ للانفصالِ عن بقيةِ القصيدةِ وبالتالي قابلةٍ للاستظهارِ ككيانٍ قائمٍ بذاتِهِ . إنَّ الذين يزعمُون أن الشَعر العربيَّ القديمَ لم يعرفْ وحَدة القصيدةِ ولا التسلسلَ المنطقيَ في بنائِها وأن بامكانِ من يَشاْءُ أن يبدّلَ ويغيّرَ في مواضعِ الأبياتْ دون الحاقِ أى ضررٍ بالقصيدة يتورطون ، بدون ريبْ ، في شيءٍ من المبَالغةْ . غير أن أحداً من المقلّدين أو المجدَّدين لا يستطيعُ أن ينكرَ أن البيتَ الفرْدَ لعبَ دوراً حاسماً في الشعرِ العربيّ التقليديِّ يفوق بكثيرِ دورَ البيتِ في أشعارِ الأممِ الأخرى ، والغربيةِ بوجهٍ خاص . كان كلُّ شاعرٍ عربيٍ مثلَ بشارِ بن برد ، الذي أعلنَ هذهِ الأمنيةَ بوضوْح ، يَودُّ لو وُفِّقَ الى بيتٍ واحدٍ من كل قصيدةٍ يكتبُها يُرزقُ السيرورَة والاِنتشارْ . لقد كان شعرُنا العربيّ التقليدي في الغالب الأعمّ مِن الحالاْت شعرَ أبياتٍ لا شِعرَ قَصائدُ . ومن هنا جاءت التعبيراتُ العديدة التي تتحدّثُ عن «الشوارِد» «وبيتِ القصيد» «وعيون الشعْر» . ان الشعراءَ العَرب الذين اهتموا بتطويرِ الفكرةِ واستقصائها أكثَر من اهتمامِهم بالعثورِ على أبياتِ القصيد ،كابن الرومي والمعريّ ، لم يظفروا بالاعجابِ المتناسب مع مواهبِهم . إن كلَّ مثقّفٍ عربيٍ يعرفُ بيت شوقي :

وانما الأُمم الأخلاقُ ما بقيتْ

فإن هُم ذَهبْت أخلاقُهم ذَهبُوا

ولكن كم عددُ الذينِ يعرفُون مطلعَ هذه القصيدةِ أو موضوعَها ؟ إن العديد من الأميّين وأشباه الأميين يتمثّلون بالبيتِ الشائعْ :

ما كُل ما يتمنى المرءُ يدرِكُه

تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُفنُ

ولكنني أشُكُ في أن أحداً من غير صفوةِ الصفوة يحْفظُ البيت الذي يسبق هذا البيتَ أو الذي يليهْ .

لقد قال لي الشاعرُ عمر أبو ريشه مرّة أنه لا يُحب المتنبي كثيراً لأنه شاعرُ أبيات .والعجيبُ في الأمرِ أن (أبو ريشه) نَفَسه يعترفُ أن أجمل بيتٍ في كل قصيدةٍ من قصائدهِ هو البيتُ الأخيرْ وما الأبياتُ التي تسبِقُه الا مجرّدَ مقدمةٍ أو ، بحسبِ تعبيرِه ، مجَردّ «دِيكور» .

ان هذا الوضْعَ المتميِّز للبيتِ الفردِ في التراث الشِعريَّ العَربيْ أمر يُسعِدُ البعضَ ويُزعج البْعض ولكنهُّ حقيقة ملموسةٌ لا يستطيعُ أن يتجاهلها سوى المكابرِينْ .

كان الشّعرُ اذن الفنَّ الوحيدَ في المجتمعِ العرّبيْ وكان لا بُد للشعرِّ أن يَنتقلَ عن طريقِ الفم والأُذن ومن هاتينِ الحقيقتينْ انطلقت الملامحُ والخصائصُ التي أشرنا اليها فيما سَبقْ . ومن غرائِبِ التاريخِ أن هذه الخَصائص التي وُلدتْ مع الشّعرِ وولد الشعْرُ مَعها لازمتْ الشعرَ في مختلفِ عصُورِهِ وأصبحتْ طبيعةً ثانيةً حتى بعد زوالِ مسببّاتِها ودوافِعها . وأوَدُّ أن أعودَ هنا الى نقطةٍ ألمحتُ اليها قَبل قليلْ وهي أن هذه الخصائصَ ظواهرُ محايدة فنياً تسمو مع الشاعرِ المحلقّْ وتنحـدِرُ مع الشاعـرِ المُسَفْ . في عصور الازدهار لم تكن اللفْظيةُ أو الِغنائيةُ أو الخَطابيةُ أو القابليةُ للحفْظ عيوباًتؤخذ على الشِعر لأنها كانت الاطَار الذي تتجلىّ من خِلاله موهبة حقيْقية وتجربةٌ حيّة . أما في عصورِ الانحطاط فقد تحولت هذه الخصائص الى غاياتٍ تطلبُ في ذاتِها على يد نظّاميين بلا موهبة حتى أصبحت الغنائِيةُ رنيناً لا معنى له والخطابيةُ جعجعةً بلا مضمْون والقابليةُ للحِفظ محاولةً ساذجةً لاستدراجِ انتباهِ المُستمع بالمحسّنات البديِعيَةْ . ونحن جميعاً نعرف أن شعرَنا في مرحلةٍ من

المراحِلِ تحول الى نظمٍ سقيمٍ مكرورٍ في تأريخ المناسباتِ والتشطيرِ والتخميسِ والأحاجِي والألغازْ .

وهنا نقتربُ شيئاً فشيئا من صميم الأزمة التي يعاني منها الشعر العربيُ المعاصِر . لقد نظر المجدّدُون في الشِعر العربي التقليّدي فلم يُرقهم ما رأوا ونظروا في الشعرِ الغرّبيْ فسرّهم ما شاهَدوا فانطلقوا بحماسٍ بالغْ يحاولوَن أن يُدخلوا على الشعـر العربـيّ من التعديلات ما يجعلُه شبيهًا بالشعرِ الغربيّ ، والأنجليزِي بوجهٍ خاص . ان الانْصَـاف يقتضي أن نُقرِّر أن دوافَع المجدِّدين كانت مزيجاً من الرغبة الصادقة في التطوير والاندفاع الأعمى الى محاكاة الآخرِين . لم ترق للمجدّدين الرتابة الصارمة التي تفرِضُها وحدة القافيةْ ولا الانضباطُ القاسي الذي تحتمه وحدةُ التفعيلة . رفض المجدّدون الاعتـراف بالدورِ المتميزِ للبيتِ الفرد وسخروا مِن المنبريةِ والغِنائية . وكانت الورطة التي وقَع فيها المجدّدون ، أو غلاتُهم على أيةِ حالِ ، هى أن للتجديد حدوداً لا يستطيع المجـدّد أن يتجَاوزهَا بدونِ أن تنقلب جهودُهُ الى محاولةٍ للهدْمِ ، ينطبق هذا على التجدِيد في الشعرِكما ينطبق على التجديدِ في أى أمرٍ من الأموْرِ . ومن هنا انتهى غُلاة المجدّدين بما اعتبروه شعراً حقيقياً وهو في حقيقةِ أمْره غريبٌ على الأُذْن العَربيةْ بعيدٌ عن الروح العَربيْة تكتبُ عنه البحوثُ العلميةُ المستفيضةْ ولا يكادُ يستمتعُ به انسانٌ عربيٌّ واحدْ .

وفي الوقتِ الذي كان فيه المجدّدون يبحثون عن لغةٍ شعريةٍ جديدةْ ويحَاولـون الحَديثَ بصوتٍ جديدٍ متميْز كان المقلّدون يشنُون معركةً ضاريةً لِانقاذِ الشعرِ العربي مما اعتبرُوه مؤامرة للقضاء علِيه سلاحُهم في ذلك تشبثٌ مطلقٌ بالقديمْ لا يقبلُ التسامُحَ ولا التَفاهُمْ . وكانت محنةُ الشعرِ العربي مع المقلدين كمحنتِة مع المجدِّين . كان المقلدُون يعيشُون بأجسادِهم في هذا القرْن أما أرواحُهم وعقُولهم فكانت ترِفرفُ علِى جيادِ عنْتره وتطوفُ بخيام امرىءِ القيسْ . لقد حافظ المقلَّدون على الشكلِ ولكنهم سَقَطوا سقوطاً ذريعًا في المضمونْ . ان أى استعراض سريعٍ للمحاولاتِ العديدة لمعارضةِ قصائد عربيةٍ شهيرةٍ بقَصائد تشبهُها في الوزنِ والقافيةِ تشيِر الى افلاس المقلّدينْ . لقد كان الشاعر

الجاهليّ الذي يتحدّث عن الطلِ الذي غادرتُه الحبَيبةُ وقافلتُها منذُ أيامْ ينطلقُ عن تَجربةٍ حقيقّية تنبضُ بالحبُ والحيَاة . أما شاعرُ اليوم الذي يناجي الأطلاَلَ فلا يذكّرنا الا ببومةٍ تنْعُق في الخرَائبْ . ان تشبيهَ الحبيبة بالغزال كان تشبيهاً رائعاً في بيئةِ الصحراءِ التي كان الغزالُ أجمل مخلوقاتها ولكنه تشبيه ثقيل في بيئةِ الأسمنتِ والحديدْ والغزلانِ المثلّجةِ في «السُوبرماركتْ» . انني أشكُّ في أن شاعراً من الذين يتحدّثون عن المها وعيون المَها اليْوم قد شاهد مهاةً واحدة في حياتِه .

في ظل هذه الظروفِ بدأ حِوارُ الصّم العقيمْ الذي سرعان ما تحوّل الى مهاترةٍ فسبابٍ فاتهام متبادلٍ بالخيانة العظمى أو ما يقاربُها بين الذين يجترون نونية ابن كلثوم وبين الذين يتعلّقون بأذيال ت . إس . اليوت . لقد أدى الجَذبُ الشعريَ الى نقاشٍ لا أول له ولا آخرْ عن الشعرِ وفلسفتِه ودورِه حتى أخذ الشعراءُ من مجدّدين أو مقلّدين ينتجون من المقابلاتِ الأدبية التي تموجُ بالأحكامِ القاطعة أضعافَ ما ينتجونَهُ من شِعر . ورحم الله المتنبي الذي كان يرفُضُ الحديثَ عن شِعره ويحيلُ المستفسِرين الى اَبن جنّيْ . لقد أصبح الشعرُ في غمرة المحيطِ الكلاميِ الهائِجْ جوهرةً نادرة لا يكاد الانسانُ يراها في كل ما يقرأ من قصَائد أو دواوينْ .

هذه النكبات العاصِفةُ التي مرّت بالأُمةِ العربية اِبتدَاء من حروب الاستقلاْل عبراً بضياعِ فلسطِين وانتهاءً بكارثةِ الصُلح الأسود ، ماذا أنتجت لنَا من شِعر ؟ هذا الانسانُ العربيِ الضائعُ بين شتى الأنظمْة ، الحائِرُ بين مختلفِ التيآراتْ ، مجروح الكرامةْ ، دامعَ الأحاسيسْ ، من الذي تكلمّ عن عذاباتِه وهمومِه ومشاكِله اليوّمية ؟ ركب المقلدّونَ ناقةَ الحطيئَة وبَكوا واستَبكوا فلم يشدّوا القلوبَ ولا العُقول . وتأبط المجدّدونَ المعمّيات وكتبوا ما لا نَفْهم عن تحولات الليلِ والنهاْر في أقاليم الهجرةِ من الداخِل الذي يأتيَ ولا يأتي وعندما نظرنا اليهم باستغرابٍ أخبرونا أننا أغبياء لا نُحسِنُ الدخولَ الى مغاليقِ القصيدةِ الحديثةِ .

لقد كان المأمولُ أن يقترب شعرُ المجدّدين من شعرِ المقلّدِيْن حتى ينتج شعرٌ عربيٌ جديدٌ أصيلٌ في الوقتِ نفسِه . ولقد كنتُ حتى عهدٍ قريبٍ أتوقع أن تسيرَ الأمورُ على هذا النّحو . ولقد كانت الأمورُ تسيرُ على هذا النحوِ بالفعلْ مع نازك الملائكة والسياب وعبد الوهاب البياتي وصلاح عبد الصبور ونزار قبانِي وخليل حاوى وبقيةِ الشعراء الذين برزوا في الخمسينات الميلادِية . الا أن هذا الاتجاه التوفيقيَّ ، ان صحّ التعبير ، ما لبث أن انتكس . ماتَ السيّابُ ورجعت نازك الملائِكه الى حظيرةِ المقلّدين وانتهى التوهُج الشعري لصلاح عبد الصبور وصمت خليل حاوى وانفصل شعرُ عبد الوهاب البياتي تدريجياً عن التُربةِ العربيةِ ليصبحَ استعراض عضلاتٍ فكريةٍ وفلسفيةٍ وصوفيةٍ وانتقلت رايةُ التجديدِ الى المدرسة الأدونيسيةْ ومريديها الذين يكتبون أشعاراً قد تكوُن رائعةً وقد لا تكوْن ، باختلافِ الأذواق والأمزِجةْ ، ولكنها بالتأكيدْ تشكلُ نقصاً كاملاً لكلِ الخصائصِ التي عَرِفها الشعرُ العربيُ طيلية تاريخِه . ان شاعراً واحداً فقط ، من المشاهِير ، هو الذي أفلَت من حلقة التجديد / التقليد المُفرغه واستطاعَ أن يخاطب الانسانَ العربيَّ بلغةِ الشعرِ عن همومِ العصرْ هو نِزار قباني . لقد كان تجديدُ نِزار قباني منطلقاً من قاعدةٍ تقليديةٍ صلبةْ ومن اعترافٍ بالشيء المرغوب في تجديده . ان سيرورة شِعر نِزار لا تعود إلى ما في شِعره من تهتكٍ أو تحرْر ، وان كان بعضُ شِعره لا يخلو مِن هذيْن ، ولكنها تعُوُد الى كونه استطاع أن يتكلَّم لُغَةً يفهمها الناسُ جميعاً عن قضايا يعاصرُها الناسُ جميعاً . ان كثيراً من الهجوم الذي يتعرّضُ له نِزار قباني اليوَمَ من الشعراء ـ مجدّدينَ ومقلّدين ـ لا يعدو ان يكون شعوراً مبطناً بالغِيرة لأنه نجح في الوصول إلى ما فَشلوا في العثورِ علْيه وهو أن يكونَ مجدّداً كالمقلّد أو مقلّداً كالمجّدّد .

ان كُلاً من المجدّدين والمقلّديْن يدرك في قَرارة نفسه ، أوفى عقلِه اللاواعي ، أن انتاجَه يفتقرُ الى شيءٍ حيويٍ أساسيٍ يحُس بِفَقده دون أن يَدرك طبيعته . ومن هنا نجد الشعراءِ المجدّدينَ الذين يُدينونَ الخطابيةَ والمنبريةَيُلقُون قَصائِدهم بطريقةٍ لا تختلفُ ـ في تصوري ـ عن الطريقةِ التي كان يتحدّثُ بها الشُّعراءُ الخطابيون في سوقِ عكاظ . إنني

أتصوَرُ عندما أستمعُ الى بعضِ الشعراءِ المجدّدين يلقُون أشعَارَهم على الجمهور ان الشَاعر يتوقعُ أَن يقف أَحدُ الحضور فيقاطعَه صارخاً «لله درك ، اذهب فأنت أشعرُ العربْ» بل إِن شاعراً مجدَّداً هو مظفر النواب بنى شُهْرتَهُ لا على شِعره بل على الطريقةِ المنبريةِ التي يُلقي بها شِعره . بل وقبل سنواتٍ دعت احدى كليات جامعة الرياض إلى امسية شعرية اشترك فيها عدد من الشعراءِ الشبابِ المُجدّدين وبعدها بأيامٍ كتب أحدُ هؤلاءِ الشعراءِ مقالاً يشكو فيهِ بمرارةٍ من عدَمِ تصفيقِ الجمهورْ . وغنيّ عن الذكرِ أن الشعراءَ المجددينْ لا يبحثونَ عن التصفيقِ كغايةٍ في حد ذاتِها ولكنْ كظاهرةٍ تؤكدُ لهمْ ارتباطَهم بالجمهورِ الذِي يعتقدُونَ أنهم يعبرُونَ بِلغتِهمْ الجَديدَةِ عن أحَاسِيسهِ . واذا كَان الشعراءُ المجدُدونَ يشعرونَ أن هُناكَ حلقةً مفقودةً بينهمْ وبين الناسْ فالشعراءُ المقلدُون يشعرونَ في قرارةِ أنفسهمِ أنهُمْ يعيشُونَ على هامِش هذا العصْر . ومن هنا جاءت رغبتُهُم المضحكةُ/ المبكيةُ في اثبـاتِ أنهـم معاصرونَ حقيقيونَ عن طَريقِ حَشْرِ كلماتٍ عصريةٍ أو ألفاظٍ مستوردةٍ في شعرهمِ بمناسبةٍ وبدون مناسبةٌ شأنَهُم في ذلك شأنَ من يُحاولُ أن يثبتَ استيعابَه لحضارةٍ أجنبيةٍ عن طريق ترديدِ كلمتينِ أجنبيتينِ بلكنةٍ لا تثيرُ سوى سخريةِ الساخِرينْ .

ولا بد لِي هُنا من كلمةٍ قصيرةٍ عن موقفي الشخصيّ كأحد الرعايا الصغارِ في مملكةِ الشعرِ العظيمةَ . لقد أحسستُ مُنذ أن بدأتُ كتابةَ الشعرِ تقريبـاً أن تياريْ التجـديدِ والتقليدِ يتجاذبانَني بلا رَحمةْ . ولقد كُنتُ ، وأحسبُني لا أزالُ ، أميلُ بعقلِي ومنطقِي الى المجدِّدين بينما يشُدُنِي قلبِي وعواطِفِي الى المقَلّدِينْ . إنني أستطيعُ أن أتعاطفَ تَعاطفاً تاماً مع الفريقينِ . أتعاطفُ مع المجدّدين وهم يصرُونَ على حَقِهِـمْ في أن يخطّـوا مسارهـم الشِعري الخَاص وأتعاطفُ مع المقلّدين وهُم يحاولون حماية التراثَ الشعرِي من أعاصِيرٌ تهبُ عليهِ من كلِ مكانْ . لقد كتبتُ شِعر التقليد وشِعر التجديْد ولم أكن في أيِّها ناجحاً كُلَّ النجاح . كنُت أشعرُ وأنا أكتبُ الشعرَ التَقليدي أننـي أقـربُ الى قلـوب القـراء والمستمعينَ وأقدرُ على ملامسةِ انفعالاتِهم وخلجاتِهمْ وكنت أشعُر وأنا أكتبُ الشعرَ الحَديثَ أنني أكثُر قدرةً على التعبيرِ عمّا أُريدْ . ان الشاعرَ لا يكُتب لنفسِه فحسبْ ولا يكتُب

للآخرين فحسبْ ومع تقديري لأهل الفنِ للفّنْ وأهلِ الفنِ للحياة تبقي الحقيقةُ في نظَري أن الشاعرَ يكتبُ لنفسِه وللآخرين في نفس الوقتْ وربما بنفسِ القْدر. ولقد فشلتُ في أن أكتبَ شِعراً يلمس نَفسي بقدْر ما يلمسُ نفوسَ الآخرين. أقول هذا حتى لا يتبادر الى ذهن أحدٍ من الخُبثاء أو الظرفاء أن حديثي عن مأساة المجدّدين والمقلّدين نابع من شعورٍ شخصيٍ بالتفوقِ على هؤلاء أو أولئك. لقد شربتُ في الحقيقةِ مأساةَ الفريقين حتى الثمالة.

وهنا أعتقد أنكم بدأتم تتساءَلون عن الحل الذي أقترحُه للأَزمْة. وتقتضي الأمانةُ أن أقول أن الاعتقادَ بأن لكل مشكلةٍ حلاً هو وهمٌ كبيْر وإن كَان يعشعشُ في كثيرٍ من العقول. ان بعضَ المشاكلِ تستعصي على الحْل، في المدى القريب على أيّ حال. والأزمةُ التي نحنُ بصددها الليلَةِ ليست تمريناً رياضياً ينتهي بالرقم السحرّيْ وعبارة «وهو المطلوب». ان ظاهرة ٱلانفصام بين المجدّدين والمقلّدين في الشِعرْ لا تعدو أن تكون انعِكاساً لظاهرةٍ أشمْل وهي الانفصامُ بين التجديدِ والتقليدِ في المجتمعِ العربّي بوجهٍ عام سواء كنّا بصددِ الحديث عن شؤون الحياةِ أو الدين أو السياسة. لقد انقسمت الصفوةُ من القادة والمفكرينْ أمام زحف الحضارةِ الغربيةِ المكتسحةِ إلى فَريقين: أحدهُما فُتِن بهذه الحضَارة وقَرر الانسياقَ مَعها والانسلاخ عن تراثه وتارِيخه وأحدُهما رفض هذه الحَضارَة رفضاً باتاً محاولاً أن يَجِد في التراثِ مأوىً يعصِمُه من الطوفان. وبدا موقفُ المجدّدين في نظر المقلدّين بمثابة إستسلامٍ أمام المدّ الحضاريِ الغربّي الذي اتخذ مرّة شَكل ٱلاستعمار ومرّة أخرى شكل التبشير، كما ارتدي عباءَةَ التفوق التقني في كافةِ الأحوال. ونظر المقلّدون الى المجدّين وكأنهم طابورُ خامسٌ متواطىءٌ مع العَدوّ لا يستحقُ سوى المحاربة والاحتقَار. ومن ناحية أخرى بدا موقف المقلّدين في نظر المجدَّدين بمثابة اعتزالٍ لهذا القرن وهربٍ من واقِعهِ وعجزٍ عن مواجَهةِ متغيراتِه وبالتالي نظر المجدّدون الى المقلّدين نظرتَهم الى عَقبةٍ كَأْدَاءَ تقفُ في طريقِ التقدمِ والتّطور. ولم يضَع هؤلاء أو أولئك أى فرصةٍ سانحةٍ لاستعداءِ السُلطة واستخدام الارهابِ الفكري ضدَ الفريقِ الآخرْ. ومن هنا اتخذ الحوارُ شكلاً غريباً

لا يُكاد يُصدق : اتهامات بالالحاد تواجها اتهامات بالرجعية ، ومجموعةٌ غريبةٌ من الشتائِم تدورُ حول الضلالِ والانحرافِ والتحجرِ وممالأَة الى آخرِ هذا القاموسِ البذيء .

وزاد من حِدّة الخلاف بين المجدَّدين والمقلّدِين ادراك كلِ طرفٍ منهم أنهُ يجهلُ بضاعة الآخرِ والناس أعداءُ ما جهِلوا . ووراء عنتريات المقلّدين هناك عجزٌ واضحٌ عن استيعابِ مشاكل هذا العصر وتمثّلها والتعاملِ معَها .ووراءَ حماسِ المجدّدّين هناك عجزٌ فاضحٌ عن استلهامِ روحِ التراث والالمامِ بذخائِره . ان أزمة المجتمع العربي كلّه تكاد تتلخصُ فِي كلمة واحِدة : إن القادرين على فهمِ هذا المجتمع عاجزون عن تطويرهِ والقادِرين على تطوِيره عاجزونَ عن فهمِه .

ومن هنا فأنني لا أرى أَى أملٍ في خروج المجتمعِ العربي من أزمتِه الا بالوصول الى قدرٍ من النضجِ الفكري يسمح بإقامة حوار هادىءٍ سلمي في شؤون الحياةِ جميعِها . عندها ، وعندها فقط ، يُمكن لكلٍ من المجدّدين والمقلّدين أن يتحادثا بروحِ الفريق الواحدِ المتضامِن المتكافِل لا بعقليةِ الحربِ الضروس بين عدّويْن لدودين . وفي ضوءِهذا المناخُ من الاطمئنانِ يمكن للشعر أن ينموَ ويزدَهرَ مستفيداً من تجربةِ أهلِ التجديد وأهلِ التقليدِ حتى نَصلَ في نهايةِ المطافِ الى شعرٍ رائعٍ قريبٍ من الروح العربية يتلّقى من التُراث نبضَات الموسيقى الأصيلة والثورة الوطنيةِ المتميزةِ ويتلّقى من هذا العَصْر خُلاصةَ ثقافاتِه ومواقفهِ فيرى فيه الانسانُ العربيُّ المعاصرُ المرآةَ الحقيقيةَ لأمسِه ويومِهِ وَغَدهِ .

مطابع جامعة الرياض